فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا

جميع الحقوق محفوظة
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

رقم الايداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية
(١٢٠/ ٤/ ١٩٨٧م).

٢١٢
احم احمد حسن فرحـــات
بحث قرآني " فطرة الله التي فطر الناس عليها "/

احمد حسن فرحات .ـعمان : دار البشير للنشر ، ١٩٨٧.

٥٠ ص
ر.أ (١٢٠/٤/١٩٨٧)
١ - القرآن - تفسير أ - العنوان

( تمت الفهرسة بمعرفة مديرية المكتبات والوثائق الوطنية )

دار البشير
للنشر والتوزيع

هاتف ٦٦٤٤٢١ - ٦٧٠٢٣٠ - ص ب ١٨٢٠٧٧ - العبدلي - بناية البدو - مقابل البنك العربي - عمان - الأردن

بحث قرآني وضرب من التفسير الموضوعي

# فطرة الله التي فطر الناس عليها

الدكتور
أحمد حسن فرحات
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الكويت

دار البشير
عمان

بسم الله الرحمن الرحيم

## بسم الله الرحمن الرحيم

- بين يدي البحث -

يكثر استعمال مصطلح « الفطرة » في ميداني الدراسات الإسلامية والتربوية ، وينبني على الاختلاف في مفهومه اختلاف كبير في النظرة إلى الإنسان وإلى العوامل التي تؤثر في تربيته وتثقيفه . وقد ورد هذا المصطلح في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . كما ورد أيضاً في بعض الأحاديث الشريفة . ووردت كلمة « فطر » و « فاطر » و « ينفطر » و « انفطر » و « منفطر » و « فطور » في عدد من الآيات القرآنية .

وقد اختلفت أقوال العلماء والمفسرين في المراد بالفطرة الواردة في الآية القرآنية ، وذهبوا في تفسيرها مذاهب متعددة ، وكانت لهم في ذلك وجهات نظر متباعدة ، وقد استدلّ كل واحد منهم لمذهبه بأدلّة . واحتج لقوله بما يظن أنه حجة ، كما بين ضعف ما ذهب إليه غيره ، وناقش أدلته وردَّها . ونظراً لأهمية الموضوع وما يمكن أن ينبني عليه ، كان لابد من إفراده بالبحث . واستقصاء ما قيل فيه ، ومناقشة الأدلة المختلفة التي اعتمد عليها العلماء ، للتعرف على مدى قوتها وضعفها ، وتبيّن ما يمكن أن يقال فيها من اعتراضات . أو يورد عليها من ملاحظات ، مما يمهد السبيل أمامنا لدراسة هذا المصطلح ، والذي يستهدف هذا البحث تحديد مدلوله واجتلاء مفهومه . وذلك من خلال النظر في المعنى اللغوي للكلمة وتتبع استعمال مادتها في القرآن الكريم وما قاله المفسرون والعلماء في

صدد تفسيرهم للنصوص القرآنية والحديثية سائلين الله تعالى أن يلهمنا الصواب والسداد وأن يوفقنا لحسن التدبر ، وصواب التأمل إنه أكرم مسؤول ، وخير مأمول .

الدكتور أحمد حسن فرحات

جامعة الكويت ـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

الفطرة . . وتفسير القرطبي :

عرض القرطبي في تفسيره لمعنى « الفطرة » وذكر أقوال العلماء فيها كما ذكر أدلتهم التي استدلوا بها لتوجيه أقوالهم . وذلك بمناسبة تفسيره للآية الثلاثين من سورة الروم ، وهي : قوله تعالى ﴿ **فأقم وجهَكَ للدِّين حنيفاً فطرة الله الَّتي فطَرَ النَّاس عليها لا تبديل لِخَلقِ الله ذلك الدِّينُ القيِّمُ ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمون** ﴾ .

وقد بدأ القرطبي كلامه بذكر ما ورد في الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفِطرة ـ في رواية على هذه الملة ـ فأبواه يُهَودانه ويُنَصِّرانه ويمجِّسانه كما تنتج البهيمةُ بهيمةً جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء » ثم يقول أبو هريرة : واقرؤوا إن شئتم ، ﴿ **فِطرةَ الله التي فَطَرَ النَّاس عليها لاتبديلَ لخلق الله** ﴾ ، في رواية « حتى تكونوا أنتم تجدعونها » قالوا : يا رسول الله ، أفرأيتَ من يموت صغيراً ؟ قال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » لفظ مسلم[1] .

الفطرة في أقوال العلماء :

ثم انتقل القرطبي لبيان أقوال العلماء في معنى « الفطرة » فقال :

واختلف العلماء في معنى الفطرة المذكورة في الكتاب والسنة على أقوال متعدِّدة :

منها الإسلام : قاله أبو هريرة وابن شهاب وغيرهما ، قالوا : وهو المعروف عندعامة السلف من أهل التأويل ، واحتجوا بالآية وحديث أبي هريرة ، وعضدوا ذلك بحديث عِياض بن حِمار المُجاشِعي أن رسول الله ﷺ قال للناس يوماً : « ألا أحدثكم بما حدثني الله في كتابه ، أن الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين ، وأعطاهم المال حلالاً لا حرام فيه فجعلوا

(١) تفسير القرطبي : ١٤ / ٢٥ ـ والحديث في صحيح مسلم برقم : ٢٥٦٨ ـ كتاب القدر.

مما أعطاهم الله حلالاً وحراماً . . . » الحديث . وبقوله ﷺ : « خمس من الفطرة . . . » فذكر منها قص الشارب ، وهو من سنن الإسلام ، وعلى هذا التأويل فيكون معنى الحديث : « ان الطفل خلق سليماً من الكفر على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه ، وأنهم إذا ماتوا قبل أن يُدركوا في الجنة ، أولادَ مسلمين كانوا أو أولاد كفار »[1] .

ونلاحظ أن القرطبي بالرغم من أنه ذكر هذا القول وعزاه لأبي هريرة وابن شهاب وأنه هو المعروف عند عامة السلف من أهل التأويل . وأنهم استدلُّوا على ذلك بالأحاديث الصحيحة ، لم يعلِّق عليه بشيء ، وحاول ذكر الأقوال الأخرى مع أدلتها ، بل إننا سنرى أنه يرجح قولاً آخر غيرهذا القول . وذلك لاعتقاده بأنه يلزم من الأخذ بهذا القول محالات عقلية سيبينها بعد ذلك .

كما نلاحظ أن مما يؤيد هذا القول ما رواه الحكيم الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد من ولد كافر أو مسلم ، يولد على فطرة الإسلام ولكن الشياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهم ، فهوَّدَتهُم ونصَّرَتهُم ومجَّستهُم وأمرتهم أن يشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً »[2].

**الفطرة : الولادة على ما يصير إليه من شقاوة أو سعادة :**

**ثم ذكر القرطبي القول الثاني من أقوال العلماء في « الفطرة » فقال :**

**( وقال آخرون : الفطرة هي البداءة التي ابتدأهم الله عليها ، أي على ما فطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء ، وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ . قالوا : والفطرة في كلام العرب البداءة . والفاطر : المبتدىء .**

**واحتجوا بما روي عن ابن عباس أنه قال : لم أكن أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما أنا**

(١) تفسير القرطبي : ١٤ / ٢٥ والحديث في كنز العمال : ١ / ٢٦٦ وهو في نوادر الأصول للحكيم الترمزي / ٨٦

فطرتها ، أي ابتدأتها ، قال المَروَزي : كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا القول ثم تركه : قال أبو عمر في كتاب التمهيد له : ما رسمه مالك في موطّئه وذكر في باب القدر فيه من الآثار ـ يدلُّ على أن مذهبه في ذلك نحو هذا ، والله أعلم .

ومما احتجوا به ما روي عن محمد بن كعب القُرَظي في قول الله تعالى : ﴿ فريقاً هَدَى وفَريقاً حقَّ عليهم الضَّلالة ﴾ قال : من ابتدأ الله خلقه للضلالة صيَّره إلى الضلالة وإن عمل بأعمال الهدى ، ومن ابتدأ الله خلقه على الهدى صيره إلى الهدى وإن عمل بأعمال الضلالة ، ابتدأ الله خلق إبليس على الضلالة وعمل بأعمال السعادة مع الملائكة ، ثم ردَّه الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه ، قال : وكان من الكافرين ) .

ثم يقول القرطبي : قلت : قد مضى قول محمد بن كعب هذا في « الأعراف » وجاء معناه مرفوعاً من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : دُعي رسول الله ﷺ إلى جنازة غلام من الأنصار فقلت : يا رسول الله ، طُوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل السوء . ولم يدركه ! قال : « أو غير ذلك يا عائشة ! إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم »[1] خرَّجه ابن ماجة في السنن.

وخرَّج أبو عيسى الترمذيِّ عن عبد الله بن عمرو قال : خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال : « أتدرون ما هذان الكتابان » ؟ فقلنا : لا يا رسول الله ، إلا أن تخبرنا ، فقال للذي في يده اليمنى : « هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً ـ ثم قال للذي

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم برقم /٢٦٦٢/ في القدر، والنسائي: ٤/٥٧ في الجنائز، وأبو داود برقم /٤٧١٣/ باب في ذراري المشركين.

في شماله ـ هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً . . . » وذكر الحديث ، وقال فيه : حديث حسن[1] .

وقد ذكر ابن حجر هذا القول منسوباً لابن المبارك وأن المراد به أنه يولد على ما يصير إليه من شقاوة أو سعادة ، فمن علم الله أنه يصير مسلماً فطره على الإسلام ، ومن علم الله أنه يصير كافراً ولد على الكفر. فكأنه أوَّل الفطرة بالعلم . . ثم يقول ابن حجر : ( وتُعقِّب بأنه لو كان كذلك لم يكن لقوله « فأبواه يهودانه الخ » معنى لأنهما فعلا به ما هو الفطرة التي ولد عليها فينافي في التمثيل بحال البهيمة )[2] .

ولعل التعقب الذي أشار اليه ابن حجر هو ما ذكره ابن تيمية ، إذ قد بين ابن تيمية عدم صحة هذا الرأي في رسالته عن « الفطرة » قال الشيخ : ( ومعلوم أن جميع المخلوقات بهذه المثابة ، فجميع البهائم هي مولودة على ما سبق في علم الله لها ، وحينئذ فيكون كل مخلوق مخلوقاً على الفطرة ، وأيضاً فلو كان المراد بذلك لم يكن لقوله : « فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » معنى فإنهما فعلا به ما هو الفطرة التي ولد عليها ، فلا فرق بين التهويد والتنصير .

ثم قال بعد أسطر فتمثيله ﷺ بالبهيمة التي ولدت جمعاً . ثم جدعت ، يبين أن أبويه غير ما ولد عليه )[3] .

وأما ما استشهد به القرطبي من حديث عائشة في الغلام الأنصاري فإنه معارض بالأحاديث الأخرى التي تجعل الأطفال الذين يموتون قبل آبائهم وأمهاتهم سبباً في إدخالهم الجنة ، وقد بين ذلك ابن حجر في فتح الباري حيث قال في شرحه لهذه الأحاديث : ( ووجه انتزاع ذلك أن من

(١) الحديث: عند الترمذي برقم /٢١٤٢/ في القدر. وعند أحمد في المسند: ١٦٧/٢ .

(٢) فتح الباري : ٢٤٩/٣ .

(٣) مجموعة الرسائل الكبرى ٢ / ٣٣٥

يكون سبباً في حجب النار عن أبويه أولى بأن يُحجَبَ هو لأنه أصل الرحمة وسببها . وقال النووي : أجمع من يعتدُّ به من علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة ، وتوقف فيه بعضهم لحديث عائشة ـ يعني الذي أخرجه مسلم بلفظ ـ « توفي صبي من الأنصار فقلت : طوبى له لم يعمل سوءاً ولم يدركه ، فقال النبي ﷺ : أوغير ذلك يا عائشة ، إن الله خلق للجنة أهلاً » ـ الحديث ـ قال : « والجواب عنه أنه لعله نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير دليل ، أو قال ذلك قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة » ـ انتهى ـ

وقال القرطبي : نفى بعضهم الخلاف في ذلك ، وكأنه عنى ابن أبي زيد فإنه أطلق الإجماع في ذلك ، ولعلَّه أراد إجماع من يعتدُّ به . وقال المازري : الخلاف في غير أولاد الأنبياء ـ انتهى ـ

ولعلَّ البخاري أشار إلى ما ورد في بعض طرق حديث أبي هريرة الذي بدأ به ، فإن فيه التصريح بإدخال الأولاد الجنة مع آبائهم . وروى عبد الله بن أحمد في زيادات المسند عن علي مرفوعاً « إن المسلمين وأولادهم في الجنة ، وإن المشركين وأولادهم في النار » ثم قرأ ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم . . . ﴾ ـ الآية ـ وهذا أصح ما ورد في تفسير هذه الآية . وبه جزم ابن عباس )[1] .

وأما الحديث الثاني الذي يتحدث عن الكتابين اللَّذين يضُمُّ أحدهما أسماء أهل الجنة والآخر أسماء أهل النار ، فإنه يدل على أن من يدخل الجنة معلوم لله تعالى وكذلك من يدخل النار وليس فيه إشارة إلى بدء الخلق هل كان على كفر أو إيمان ، وهو موضع النزاع الذي يجب أن تساق الأدلة فيه . ومن هنا فاستشهاد القرطبي بهذا الحديث لم يكن في مكانه . وبهذا نتبين ضعف هذا القول لضعف الأدلة التي يستند إليها .

---

(١) فتح الباري : ٣/٢٤٤ ـ ٢٤٥ .

الولادة على الفطرة ليست على العموم :

أما القول الثالث الذي ذكره القرطبي فهو قول من جعل كُلًّا من الآية والحديث لايراد بهما العموم الظاهر ، وإنما يراد بهما الخصوص . وفي ذلك يقول :

( وقالت فرقة : ليس المراد بقوله تعالى : ﴿ فطر الناس عليها ﴾ ولا قوله عليه السلام : « كل مولود يولد على الفطرة » العموم ، وإنما المراد بالناس المؤمنون ، إذ لو فُطر الجميع على الإسلام لما كفر أحد ، وقد ثبت أنه خلق أقواماً للنار ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم ﴾ وأخرج الذريَّة من صلب آدم سوداء وبيضاء . وقال في الغلام الذي قتله الخضر : طبع يوم طبع كافراً .

وروى أبو سعيد الخُدري قال : صلى بنا رسول الله ﷺ العصر بنهار ، وفيه : وكان فيما حفِظنا أن قال : « ألاَ إن بني آدم خُلقوا طبقات شتى فمنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً ، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً ، ومنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً ، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً ، ومنهم حسن القضاء حسن الطلب » ذكره حماد بن زيد بن سلمة في مسند الطيالسي قال : حدثنا علي بن زيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد . قالوا : والعموم بمعنى الخصوص كثير في لسان العرب ، ألا ترى إلى قوله عز وجل . ﴿ تُدمِّرُ كل شيء ﴾ ولم تدمر السموات والأرض . وقوله : ﴿ فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ ولم تفتح عليهم أبواب الرحمة .

وقال إسحاق بن راهويه الحنظلي : تم الكلام عند قوله : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ﴾ ثم قال : ﴿ فطرة الله ﴾ أي فطر الله الخلق فطرة إمَّا بجنة أو نار ، وإليه أشار النبي ﷺ في قوله : « كل مولود يولد على الفطرة » ولهذا قال : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ قال شيخنا أبو العباس : من قال هي

سابقة السعادة والشقاوة فهذا إنما يليق بالفطرة المذكورة في القرآن ، لأن الله تعالى قال : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ وأما في الحديث فلا ، لأنه قد أخبر في بقية الحديث بأنها تبدَّل وتغيَّر )[1] .

وقد أكّد هذا المعنى ما ذكره ابن حجر في قوله : ( وحكى ابن عبد البر عن قوم أنه لايقتضي العموم ، وإنما المراد أن كل من ولد على الفطرة ، وكان له أبوان على غير الإسلام نقلاه إلى دينهما ، فتقدير الخبر على هذا : كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهوديَّان مثلاً فإنهما يُهَوِّدانِه ثم يصير عند بلوغه إلى ما يحكم به عليه ) . غير أن ابن حجر يرد هذا القول بقوله : ( ظاهره تعميم الوصف المذكور في جميع المولودين وأصرح منه رواية يونس المتقدمة بلفظ « ما من مولود إلا يولد على الفطرة » ولمسلم من طريق أبي صالح عن أبي هريرة بلفظ : « ليس من مولود يولد إلا على هذه الفطرة حتى يعبر عنه لسانه » وفي رواية له من هذا الوجه : « ما من مولود إلّا وهو على الملّة » . . . ثم يقول ابن حجر : وأصرح منها رواية جعفر بن ربيعة بلفظ : « كل بني آدم يولد على الفطرة » )[2].

وأما الحديث الذي استشهد به القرطبي فإنه ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان ، وهو معارض بما ثبت من الصحاح المتقدمة .

الفطرة : سلامة الخلقة من غير كفر أو إيمان ومن غير معرفة أو إنكار :

ثم انتقل القرطبي لبيان القول الرابع في معاني « الفطرة » فقال : ( وقالت طائفة من أهل الفقه والنظر : الفطرة هي الخلقة التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه ، فكأنه قال : كل مولود يولد على خِلقة يعرف بها ربَّه إذا بلغ مبلغ المعرفة ، يريد خِلقة مخالفة لخلقة البهائم التي لا تصل بخلقتها إلى معرفته .

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤ / ٢٦ ـ ٢٧ والحديث أخرجه الترمذي برقم / ٢١٩٢ / في الفتن . وهو في جامع الأصول : ١١ / ٧٤٧ ـ ٧٤٨ .

(٢) فتح الباري : ٣ / ٢٤٨

واحتجوا على أن الفطرة الخلقة ، والفاطر الخالق ، لقول الله عز وجل : ﴿ **الحمدُ لله فاطرِ السمواتِ والأرض** ﴾ يعني خالقهن ، وبقوله : ﴿ **ومالي لا أعبد الذي فطرني** ﴾ يعني خلقني ، وبقوله : ﴿ **الذي فطرهُنَّ** ﴾ يعني خلقهن . قالوا : فالفطرة الخِلقة ، والفاطر الخالق ، وأنكروا أن يكون المولود يفطر على كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار . قالوا : وإنما المولود على السلامة في الأغلب خلقة وطبعاً وبنية ليس معها إيمان ولا كفر ولا إنكار ولا معرفة ، ثم يعتقدون الكفر والإيمان بعد البلوغ إذا ميزوا .

واحتجوا بقوله في الحديث : « كما تنتج البهيمةُ بهيمة جمعاء ـ يعني سالمة ـ هل تحسون فيها من جدعاء » يعني مقطوعة الأذن . فمثّل قلوب بني آدم بالبهائم لأنها تولد كاملة الخلق ليس فيها نقصان ، ثم تقطع آذانها بعد وأنوفها ، فيقال : هذه بحائر وهذه سوائب . يقول فكذلك قلوب الأطفال في حين ولادتهم ليس لهم كفر ولا إيمان ، ولا معرفة ولا إنكار كالبهائم السائمة ، فلما بلغوا استهوتهم الشياطين فكفر أكثرهم ، وعصم الله أقلهم .

قالوا : ولو كان الأطفال قد فطِروا على شيءٍ من الكفر والإيمان في أوليَّة أمورهم ما انتقلوا عنه أبداً ، وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون .

قالوا : ويستحيل في المعقول أن يكون الطفل في حين ولادته يعتقل كفراً أو إيماناً ، لأن الله أخرجهم في حال لا يفقهون معها شيئاً ، قال الله تعالى : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً** ﴾ فمن لا يعلم شيئاً استحال منه كفر أو إيمان ، أو معرفة أو إنكار . قال أبو عمر بن عبد البر : هذا أصح ما قيل في معنى الفطرة التي يولد الناس عليها . ومن الحجة أيضاً في هذا قوله تعالى : ﴿ **إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ و ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾ ومن لم يبلغ وقت العمل لم يرتهن بشيء . وقال : ﴿ **وما كنَّا معذِّبين حتى نبعث رسولاً** ﴾ ولما أجمعوا على دفع القود والقصاص والحدود والآثام عنهم في دار الدنيا كانت الآخرة أولى بذلك .

والله أعلم )[1].

ثم يؤيد القرطبي هذا القول بأنه ما أختاره غير واحد من المحققيقن كابن عبد البر وابن عطية ، وشيخه أبي العباس فيقول :

( قلت : وإلى ما اختاره أبو عمر واحتج له ، ذهب غير واحد من المحققين منهم ابن عطية في تفسيره في معنى الفطرة ، وشيخنا أبو العباس .

قال ابن عطية : والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة التي في نفس الطفل التي هي معدَّة ومهيَّأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى ، ويستدل بها على ربِّه ويعرف شرائعه ويؤمن به ، فكأنه تعالى قال : أقم وجهك للدِّين الذي هو الحنيف ، وهو فطرة الله الذي على الإعداد له فطر البشر ، لكن تَعرِضهم العوارض ، ومنه قول النبي ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو يُنصِّرانه » فذكر الأبوين إنما هو مثال للعوارض التي هي كثيرة .

وقال شيخنا في عبارته : إن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق ، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات ، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ودين الإسلام وهو الدِّين الحق . وقد دلَّ على صحة هذا المعنى قوله : « كما تُنتَجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء هل تُحسُّون فيها من جَدعاء » يعني أن البهيمة تلد ولدها كامل الخلقة سليماً من الآفات ، فلو تُرك على أصل تلك الخلقة لبقي كاملاً بريئاً من العيوب ، لكن يُتصرَّف فيه فيُجدع أذنه ويُوسم وجهه فتطرأ عليه الآفات والنقائص فيخرج عن الأصل ، وكذلك الإنسان ، وهو تشبيه واقع ووجهه واضح )[2] .

**ثم يحاول القرطبي الجمع بين هذا القول والقول الأول بتأويل القول الأول وأن المراد به بعد البلوغ والإدراك ، فيقول :**

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤ / ٢٧ ـ ٢٨

(٢) تفسير القرطبي : ١٤ / ٢٩

( قلت : وهذا القول مع القول الأول موافق له في المعنى ، وأن ذلك بعد الإدراك حين عقلوا أمر الدنيا ، وتأكدت حجة الله عليهم بما نصب من الآيات الظاهرة : من خلق السموات والأرض والشمس والقمر ، والبر والبحر ، واختلاف الليل والنهار ، فلما عملت أهواؤهم فيهم أتتهم الشياطين فدعتهم إلى اليهودية والنصرانية ، فذهبت بأهوائهم يميناً وشمالاً ، وأنهم إن ماتوا صغاراً فهم في الجنة ـ أعني جميع الأطفال ـ ، لأن الله تعالى لما أخرج ذرية آدم من صلبه في صورة الذرّ أقروا له بالربوبية وهو قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا** ﴾ ثم أعادهم في صلب آدم بعد أن أقرّوا له بالربوبية ، وأنه الله لا إله غيره ، ثم يكتب العبد في بطن أمه شقياً أو سعيداً على الكتاب الأول ، فمن كان في الكتاب الأول شقياً عُمِّر حتى يجري عليه القلم فينقض الميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم بالشرك ، ومن كان في الكتاب الأول سعيداً عُمِّر حتى يجري عليه القلم فيصير سعيداً ، ومن مات صغيراً من أولاد المسلمين قبل أن يجري عليه القلم فهم مع آبائهم في الجنة ، ومن كان من أولاد المشركين فمات قبل أن يجري عليه القلم فليس يكونون مع آبائهم ، لأنهم ماتوا على الميثاق الأول الذي أخذ عليهم في صلب آدم ولم ينقض الميثاق .

ذهب إلى هذا جماعة من أهل التأويل ، وهو يجمع بين الأحاديث ، ويكون معنى قوله عليه السلام لما سئل عن أولاد المشركين فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » يعني لو بلغوا .

ودَّل على هذا التأويل أيضاً حديث البخاري عن سَمُرة بن جُندُب عن النبي ﷺ الحديث الطويل حديث الرؤيا ، وفيه قوله عليه السلام : « وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإبراهيم عليه السلام ، وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة » قال فقيل : يا رسول الله ، وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ : « وأولاد المشركين » .

وهذا نص يرفع الخلاف ، وهو أصح شيء رُوي في هذا الباب ،

وغيره من الأحاديث فيها علل وليست من أحاديث الأئمة الفقهاء ، قاله أبو عمر بن عبد البر .

وقد روي من حديث أنس قال : سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين فقال : « لم تكن لهم حسنات فيجزَوا بها فيكونوا من ملوك الجنة ، ولم تكن لهم من سيئات فيعاقبوا عليها فيكونوا من أهل النار ، فهم خدم لأهل الجنة » ذكره يحيى بن سلام في التفسير له )[1] .

هذا ما ذكره القرطبي في تأييد هذا القول والانتصار له ، كما وصفه بأنه مذهب المحققين وطائفة من أهل الفقه والنظر . غير أن الناظر المتأمل في ما ساقه القرطبي من أدلة وما أورده من حجج ، لايمكن أن يُسلِّم للقرطبي ما انتهى إليه من معنى الفطرة ، ولا ما بناه على ذلك من أحكام وذلك نظراً لضعف الأدلة التي اعتمد عليها ، والتي لايمكن أن تثبت في وجه النقد العلمي الصحيح . وسنناقش فيما يلي هذه الأدلة ، ونبين جهة ضعفها وعدم صلاحيتها للاحتجاج :

مناقشة الأدلة التي اعتمد عليها القرطبي :

عرفنا مما تقدم أن ما ذهب إليه القرطبي في معنى « الفطرة » هو : الخلقة التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه ، فكأنه قال : « كل مولود يولد على خلقة يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة ، يريد خلقة مخالفة لخلقة البهائم التي لا تصل بخلقتها إلى معرفته » .

أما الأدلة التي احتجوا بها ، فسنناقشها واحداً واحداً :

ـ الدليل الأول :

( احتجوا بأن « الفطرة » : الخلقة . و« الفاطر » : الخالق . وأنكروا أن يكون المولود يفطر على كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار . قالوا : وإنما المولود على السلامة في الأغلب خلقة وطبعاً وبنية ليس معها إيمان ولا كفر ولا إنكار ولا معرفة ، ثم يعتقدون الكفر والإيمان بعد البلوغ إذا ميزوا )[2] .

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤ / ٢٩ ـ ٣٠ (٢) تفسير القرطبي : ١٤ / ٢٧

أما قولهم بأن « الفطرة » : الخلقة . و « الفاطر » : الخالق . فهذا لاينازعهم فيه أحد . لأنه المعني اللغوي للكلمة ، ولكن « الخلقة » كما تكون في الحسِّيات كذلك تكون في المعنويات ، فنقول : خلق الله الإنسانَ ، ونقول : خلق الله الإنسان هلوعاً ، كما قال تعالى : ﴿ **إن الإنسان خُلق هلوعاً إذا مسَّه الشر جزوعاً . وإذا مسَّه الخير منوعاً . إلا المصلين** . . . ﴾ وعلى هذا يمكننا أن نقول : فُطر الإنسانُ على الهلع ، والهلع : أمر فطري فطر الله الناس عليه كذلك يمكن أن نقول : فطر الله الإنسان على الإسلام أو على التوحيد. والإسلام أو التوحيد : فطرة الله التي فطر الناس عليها . وليس هناك أي مانع يمنع من ذلك لا من اللغة ولا من غيرها .

أما إنكارهم أن يفطر المولود على كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار : فهو الكلام الذي لادليل عليه ، ولا حجة معه : لأنه مخالف لصريح الآية والأحاديث الواردة .

أما مخالفته لصريح الآية : فلأنها طلبت مِنَّا إقامة الوجه للدين حنيفاً ، ثم بينت ذلك فقالت ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾ ثم أكدت ذلك بقولها : ﴿ **ذلك الدين القيم** ﴾ فقد فُسِّرت بالدين المستقيم .

وأما الأحاديث الواردة والتي سبقت فيما نقلناه عن القرطبي في القول الأول ، فإنها صريحة في أن المراد بالفطرة الدين أو الإسلام ، فقد أورد القرطبي حديث أبي هريرة المخرج في الصحيح : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة » وفي رواية « على هذه الملة ـ فأبواه يهودانه . . . . » . فالرواية الثانية شرحت المراد بـ « الفطرة » وبينت أنها : الملة .

وكذلك حديث عياض بن حمار المجاشعي فإنه صريح في أن الله خلق آدم وبنيه على الإسلام حيث قال عياض : إن رسول الله ﷺ قال للناس يوماً : « ألا أحدثكم بما حدثني الله في كتابه : إن الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين . . . » .

وأصرح من ذلك كله ما رواه الحكيم الترمذي عن أنس قال : قال

رسول الله ﷺ « كل مولود يولد من ولد كافر أو مسلم ، فإنه يولد على الفطرة، على الإسلام كلهم، ولكن الشياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهم ، فهوَّدتهم ونصَّرتهم ومجَّستهم وأمرتهم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً »[1] .

**فهل هناك بيان أصرح من هذا البيان في أن المراد بالفطرة الإسلام ؟ !**

**أما قولهم : « وإنما المولود على السلامة في الأغلب خلقة وطبعاً وبنيةً** ليس معها إيمان ولا كفر ، ولا إنكار ولا معرفة ، ثم يعتقدون الكفر والإيمان بعد البلوغ إذا ميزوا »[2] .

فهو مخالف أيضاً للآية وللأحاديث المتقدمة ، ذلك أن الآية أفادت العموم حين قالت ﴿ **فطر الناس عليها** ﴾ وكذلك الأحاديث « ما من مولود . . . » « إن الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين . . . » « كل مولود يولد على الفطرة . . . » كلها جاءت بألفاظ العموم . بينما هم يجعلون الولادة على السلامة في الأغلب لأنهم ذهبوا إلى معاني حسية في الخلقة ـ خلقةً وطبعاً وبنيةً ـ، بينما الأحاديث صريحة بخلاف ذلك وأن المراد بذلك الإسلام .

وأما اعتقاد الكفر والإيمان بعد البلوغ إذا ميزوا ، فهو أيضاً مخالف للأحاديث المتقدمة ، لأنها تنص على أن الأبوين هما اللذان يهودان وينصران ويمجسان ، ومعروف أن سلطة الأبوين وتأثيرهما إنما يكون في المراحل الأولى من عمر الطفل وقبل البلوغ ، وأن الولد بعد البلوغ يشعر بذاتيته وشخصيته ، ويختط لنفسه خطاً يتفق مع عقله وقناعاته ، فهو أقدر على مخالفة والديه وعدم التأثر بهما .

ثم إن الحديث نص على أن الأبوين « يهودان ويمجسان وينصران » ولم ينص على الإسلام لأنه هو الفطرة فلو لم يكن كذلك لقال أو يُسلمانه . وقد أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته عن الفطرة حيث يقول : ( وقولكم خلقوا خالين من المعرفة والإنكار من غير أن تكون الفطرة

---

(١) كنز العمال: ١ / ٢٦٦ (٢) تفسير القرطبي: ١٤ / ٢٧

تقتضي واحداً منها ، بل يكون القلب كاللوح الذي يقبل كتابة الإيمان والكفر ، وليس هو لأحدهما أقبل منه للآخر ، فهذا قول فاسد جداً ، فحينئذ لا فرق بالنسبة إلى الفطرة بين المعرفة والإنكار والتهويد والتنصير والإسلام ، وإنما ذلك بحسب الأسباب ، فكان ينبغي أن يقال : فأبواه يسلمانه ويهودانه وينصرانه ، فلما ذكر أن أبويه يكفرانه ، وذكر الملل الفاسدة دون الإسلام ، علم أن حكمه في حصول سبب مفصل غير حكم الكفر )[1] .

ثم قال بعد ذلك : ففي الجملة كل ما كان قابلاً للمدح والذم على السواء ، لايستحق مدحاً ولا ذماً والله تعالى يقول : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرةَ الله التي فطر الناس عليها** ﴾ فأمره بلزوم فطرته التي فطر الناس عليها .

( وأيضاً فالنبي ﷺ شبهها بالبهيمة المجتمعة الخلق ، وشبه ما يطرأ عليها من الكفر بجدع الأنف ، ومعلوم أن كمالها محمود ونقصها مذموم ، فكيف تكون قبل النقص لا محمودة ولا مذمومة )[2] .

ـ الدليل الثاني : ثم قال القرطبي محتجاً لما ذهب إليه :

( واحتجوا بقوله في الحديث « كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ـ يعني سالمة ـ هل تحسُّون فيها من جدعاء » ـ يعني مقطوعة الأذن ـ فمثَّل قلوب بني آدم بالبهائم لأنها تولد كاملة الخلق ليس فيها نقصان ، ثم تقطع آذانها بعد وأنوفها ، فيقال : هذه بحائر ، وهذه سوائب . يقول : فكذلك قلوب الأطفال في حين ولادتهم ليس لهم كفر ولا إيمان ، ولا معرفة ولا إنكار ، كالبهائم السائمة ، فلما بلغوا استهوتهم الشياطين فكفر أكثرهم ، وعصم الله أقلهم ، قالوا : ولو كان الأطفال قد فطروا على شيء من الكفر والإيمان في أولية أمورهم ما انتقلوا عنه أبداً ، وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون . . . . )[3] .

---

(١) مجموعة الرسائل الكبرى : ٢ / ٣٣٥ ـ ٣٣٦

(٢) مجموعة الرسائل الكبرى : ٢ / ٣٣٦ (٣) تفسير القرطبي : ١٤ / ٢٧

وهذا الدليل الثاني لايصلح للاحتجاج أيضاً لأنه مبني على أن المراد بالفطرة قلوب بني آدم التي تولد كاملة الخلق ليس فيها نقصان ، وهذا المعنى لم يرد في الأحاديث كما بيناً ذلك فيما سبق بل المعنى هو الإسلام كما صرحت بذلك الأحاديث ، وإذا لم يصح معنى المشبَّه ـ الذي شرح به القرطبي الفطرة ـ فكيف يصح ما أراد القرطبي أن يستدل به من التشبيه ؟ !

ثم إن مقتضى كلام القرطبي : ( فمثل قلوب بني آدم بالبهائم لأنها تولد كاملة الخلق ليس فيها نقصان ثم تقطع آذانها بعد وأنوفها ، فيقال : هذه بحائر ، وهذه سوائب . يقول : فكذلك قلوب الأطفال في حين ولادتهم ليس لهم كفر ولا إيمان ، ولا معرفة ولا إنكار كالبهائم السائمة ، فلما بلغوا استهوتهم الشياطين فكفر أكثرهم ، وعصم الله أقلهم ) مقتضى هذا الكلام أن يكون مدحاً للقلوب الكاملة الخلق قبل نقصانها ، وذماً لها بعد نقصانها ـ كما هو الشأن في البهائم قبل جدعها وبعد جدعها ـ غير أن قوله بأن الأطفال حين ولادتهم ليس لهم كفر ولا إيمان ، ولا معرفة ولا إنكار كالبهائم السائمة لايقتضي مدحاً ولا ذماً فخالف بذلك مقتضى الكلام السابق .

وقوله بعد ذلك : ( فما بلغوا استهوتهم الشياطين فكفر أكثرهم ، وعصم الله أقلَّهم ) مخالف لما أسلفه القرطبي من أن ( المولود على السَّلامة في الأغلب خِلقَةً وطبعاً وبنية ) إذ مقتضى هذه السَّلامة أن يكون أكثرهم مؤمنين وأقلهم كافرين ، لأن الكفر والإيمان عندهم لايكون إلا بعد البلوغ ، فإذا كانت سلامة الخلقة والطبع والبنية مستمرة حتى البلوغ ـ في رأيهم ـ لايطرأ عليها كفر وإيمان ولا معرفة وإنكار قبل البلوغ كان تأثير الشياطين بعد البلوغ أقل من تأثير سلامة الخلقة والطبع والبنية ، مما يقتضي كثرة المؤمنين وقلة الكافرين ، وهذا تناقض واضح ولا شك .

أما قوله : ( قالوا : ولو كان الأطفال قد فطروا على شيء من الكفر والإيمان في أولية أمورهم ما انتقلوا عنه أبداً ، وقد نجدهم يؤمنون ثم

يكفرون ) نقول : إن هذا الكلام صحيح فيما لو ترك الأمر يجري على طبيعته ، ولكن الانتقال من الإيمان إلى الكفر في حياة الأطفال ، إنما يتم بتدخل خارجي من قبل الأبوين كما نصت على ذلك الأحاديث السابقة « فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » فليس الأمر إذن انتقالاً ذاتياً من قبل الأطفال، وإنما هو نقل إجباري يتم بتدخل الآباء وفعلهم .

وأما قوله ( قالوا ويستحيل في المعقول أن يكون الطفل في حين ولادته يعقل كفراً أو إيماناً لأن الله أخرجهم في حال لا يفقهون معها شيئاً ، قال الله تعالى : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً** ﴾ فمن لايعلم شيئاً استحال منه كفر أو إيمان ، أو معرفة أو إنكار ) .

نقول إن هذا صحيح فيما يكتسب من المعرفة والإيمان ، وليس صحيحاً فيما يوهب من الله فطرة وخلقة ، كما قال تعالى : ﴿ **أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾ وكما قال : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل** ﴾ وسيأتي تفصيل ذلك في مكانه ـ وقد قال ابن تيمية في رسالته عن الفطرة جواباً عن مثل هذه الشبهة :

ولقد حدثنا شيخنا ابن قاضي الجبل عن بعض العلماء لا أستحضره . قال : لو ترك طفل رضيع في بيت لايكلم ، وله من يقوم بأمره لعرف ربه ونطق بالسريانية ، وكونه نطق بفطرته التي فطر عليها لم يستبعد ، فنوع الإنسان أشرف من كثير من المخلوقات . قال ابن عباس من جميع المخلوقات قاله في قوله : ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ ولا شك أنه أفضل من الجمادات ، وقد فطر الله الجمادات على تسبيحه وتحميده وتنزيهه نطقاً لايفهمه إلا الذي أنطقها به قال تعالى : ﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً** ﴾ قال شيخنا ابن قاضي الجبل في هذه الآية قال : تسبيحها تسبيح حقيقي ولهذا قال : إنه كان حليماً غفوراً ، أي إذا كانت الجمادات التي لا تتنعم تسبح بحمد خالقها فهو حليم غفور ،

إذ لم يعاجل المقصرين الذين كملت النعمة في حقهم بالعقوبة )[1].

ـ الدليل الثالث : وقال القرطبي محتجاً لما ذهب إليه من معنى « الفطرة » :

**( ومن الحجة أيضاً في هذا قوله : ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ و﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ ومن لم يبلغ وقت العمل لم يرتهن بشيء وقال : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ ولما أجمعوا على دفع القوَد والقصاص والآثام عنهم في دار الدنيا كانت الآخرة أولى بذلك والله** أعلم )[2].

وهذا الكلام مبني أيضاً على عدم التفرقة بين الإيمان الفطري الذي يولد عليه الناس كافة وبين الإيمان الكسبي الذي يكون نتيجة استخدام العقل والحواس ، واستجابة لدعوات الرسل والأنبياء وما يرافق ذلك من العمل الصالح الذي على أساسه تكون المسؤولية ويكون الجزاء . وقد ذكر الخطابي في معالم السنن تعقيباً على حديث أبي هريرة « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه . . . . » قال : ذكر أبو داود في تفسيره عن حماد بن سلمة أنه كان يقول : هذا عندنا حيث أخذ الله عليهم العهد في أصلاب آبائهم فقال : « ألست بربكم قالوا بلى » . . . . ثم يقول الخطابي : قلت : معنى قول حماد في هذا حسن ، وكأنه ذهب الى انه لا عبرة للإيمان الفطري في أحكام الدنيا وانما يعتبر الإيمان الشرعي المكتسب بالإرادة والفعل ألا ترى أنه يقول : فأبواه يهودانه وينصرانه ، فهو مع وجود الإيمان الفطري فيه محكوم له بحكم الأبوين الكافرين . [3]

ـ وسيأتي مزيد إيضاح لهذه النقطة في مكانها من هذا البحث .

ولا يكتفي القرطبي بتبني هذا القول ونصرته بالوقوف إلى جانبه ، وإنما يحاول إضعاف القول الأول الذي قال به ابن شهاب من أن الفطرة

---

(١) مجموعة الرسائل الكبرى : ٢ / ٣٣٧ ـ ٣٣٨

(٢) تفسير القرطبي : ١٤ / ٢٨

(٣) معالم السنن : ٤ / ٣٢٥

هي « الإسلام » مُدَّعياً أنه يلزم منه محال عقلي ، كما يُهوِّن من شأن الأدلة الأخرى محاولاً تأويلها تأويلاً متكلفاً حيث يقول : ( ويستحيل أن تكون الفطرة المذكورة الإسلام ، كما قال ابن شهاب ، لأن الإسلام والإيمان : قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح ، وهذا معدوم من الطفل ، لا يجهل ذلك ذو عقل .

وأما قول الأوزاعي : سألت الزهري عن رجل عليه رقبة أيجزى عنه الصبي أن يعتقه وهو رضيع ؟ قال نعم ، لأنه ولد على الفطرة يعني الإسلام ، فإنما أجزى عتقه عند من أجازه ، لأن حكمه حكم أبويه .

وخالفهم آخرون فقالوا : لايجزي في الرقاب الواجبة إلا من صام وصلى ، وليس في قوله تعالى : ﴿ **كما بدأكُم تعُودون** ﴾ ولا في « أن يختم الله للعبد بما قضاه له وقدره عليه » دليل على أن الطفل يولد حين يولد مؤمناً أو كافراً ، لما شهدت له العقول أنه في ذلك الوقت ليس ممن يعقل إيماناً ولا كفراً .

والحديث الذي جاء فيه : « أن الناس خلقوا على طبقات » ليس من الأحاديث التي لا مطعن فيها ، لأنه انفرد به علي بن زيد بن جدعان ، وقد كان شعبه يتكلم فيه . على أنه يحتمل قوله : « يولد مؤمناً » أي يولد ليكون مؤمناً ، ويولد ليكون كافراً على سابق علم الله فيه ، وليس في قوله في الحديث « خلقت هؤلاء للجنة وخلقت هؤلاء للنار » أكثر من مراعاة ما يختم به لهم ، لا أنهم في حين طفولتهم ممن يستحق جنة أو ناراً ، أو يعقل كفراً أو إيماناً )[1] .

وكلام القرطبي هذا يشعرنا بأنه ترك النصوص الظاهرة ومعانيها الصريحة هرباً من الوقوع في مثل هذه المحالات العقلية التي يتصورها ، وراح يؤول تلك النصوص ويسرف في تأويلها بعيداً عن المراد ، ولو أنه فرق بين الإسلام والإيمان المكتسبين وبين الإسلام والإيمان الفطريين لما وقع فيما وقع فيه ولما احتاج إلى تلك التأويلات البعيدة . فالإيمان الذي

(١) تفسير القرطبي : ١٤ / ٣٨

هو قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح والذي هو معدوم من الطفل إنما هو الإيمان المكتسب ، أما الإيمان الفطري فهو أمر جبلِّي خلقي .

وأما قول القرطبي : ( وأما قول الأوزاعي : سألت الزهري عن رجل عليه رقبة ، أيجزي عنه الصبي أن يعتقه وهو رضيع ؟ قال : نعم ، لأنه ولد على الفطرة يعني الإسلام ، فإنما أجزى عتقه عند من أجازه ، لأن حكمه حكم أبويه . وخالفهم آخرون فقالوا : لايجزي في الرقاب الواجبة إلا من صام وصلى )[1] .

فيلاحظ فيه أن الزهري عَلَّلَ إجزاء عتق الصبي الرضيع بأنه ولد على الفطرة يعني الإسلام وبالرغم من وضوح العلَّة فإن القرطبي لايقبل هذه العلة التي علل بها صاحب الحكم حكمه ، وإنما يجعله مجيزاً لهذا الحكم بعلة أخرى وهي أنه أجاز ذلك لأنه جعل حكم الرضيع حكم أبويه المسلمين .

ومما يدفع هذا التعليل الذي ذهب إليه القرطبي ما ذكره ابن تيمية في رسالته عن الفطرة حيث قال : ( وقد ذكر الخلّال في جامعه في كتاب أحكام الملل : باب الحكم المترتب على الفطرة : أنبأ المروزي أن أبا عبد الله قال في سبي أهل الحرب : إنهم مسلمون إذا كانوا صغاراً ، وإن كانوا مع أحد الأبوين ، ويحتج بالحديث . وذكر عنه نصوصاً كثيرة في هذا الباب .

وقد سئل الزهري عن رجل عليه رقبة مؤمنة أيجزيه رضيع يعتقه ؟ قال : نعم لأنه ولد على الفطرة وهي الإسلام .

وقال الزهري : يصلّى على كل مولود متوفى وإن كان لغية لأنه ولد على فطرة الإسلام ، والإسلام : هو قول لا إله إلا الله ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام** ﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين : يقول لا إله إلا الله . . . )[2] .

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤ / ٢٨ .

(٢) مجموعة الرسائل الكبرى : ٢ / ٣٣٦

وبهذا يظهر أن العلة هي الفطرة التي هي الإسلام ، وليس لأن حكمه حكم أبويه كما ذهب إلى ذلك القرطبي .

هذا ما ذكره العلماء في معنى الفطرة ، وما استدلوا به لمذاهبهم ، وما ردَّ به بعضهم على بعض وما يمكن أن يرد على أقوالهم من ملاحظات ، ذكرناها أولاً إشعاراً للقارىء بأهمية الموضوع وكثرة الاختلاف فيه . وضرورة بحثه من جديد . وسنبين في الصفحات التالية ما بدا لنا في هذا الموضوع ، سائلين الله الهداية والرشاد ، والتوفيق والسداد .

**المعنى اللغوي :**

قال الأزهري في معجمه « تهذيب اللغة » قال ابن عباس : ( كنت ما أدري ما فاطر السموات والأرض . حتى احتكم إليَّ أعرابيان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتُها ، أي أنا ابتدأت حفرها . . . ) .

وأخبرني المنذري عن أبي العباس أنه سمع ابن الأعرابي يقول : ( أنا أول من فطر هذا ، أي : ابتدأه )[1] .

وقال صاحب لسان العرب ـ في معرض شرحه للفطرة التي وردت في الآية القرآنية ـ :

والفطرة ـ ههنا ـ كما قال إسحاق بن الأثير في قوله : « كل مولود يولد على الفطرة » . قال الفطر : الابتداء والاختراع .

والفطرة ـ منه ـ : الحالة ، كـ « الجلسة » و « الركبة »[2] .

وقال الراغب الأصفهاني في مفرداته : وفَطرُ الله الخلقَ : وهو إيجاده الشيء وإبداعُهُ على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال فقوله ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾ هي ما ركز فيه من قوته على معرفة الإيمان وهو المشار

---

(١) تهذيب اللغة : ١٣ / ٣٢٦ .

(٢) لسان العرب : ٣ / ٣٦٤ ـ ٣٦٥ .

إليه بقوله : ﴿ ولئن سألتَهُم من خلقَهُم ليقولن الله ﴾ وقال ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ﴾[1]

**مادة « فطر » في القرآن الكريم :**

لقد استعملت مادة « **فطر** » في القرآن الكريم في معرض الإشارة إلى خلق الإنسان وخلق السَّموات والأرض .

ففي معرض خلق الإنسان نجد الآيات التالية :

﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ [ الروم : ٣٠ ] .

﴿ فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة ﴾ [ الإسراء : ٥١ ] .

﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا ﴾ [ طه : ٧٢ ] .

﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني ﴾ [ هود : ٥١ ] .

﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ﴾ [ يس : ٢٢ ] .

﴿ إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ﴾ [ الزخرف : ٢٧ ] .

وفي مجال خلق السموات والأرض نجد الآيات التالية :

﴿قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن﴾ [الأنبياء : ٥٦] .

﴿ قل أغير الله أتَّخذُ ولياً فاطر السموات والأرض ﴾ [ الأنعام : ١٤ ] .

﴿ فاطر السموات والأرض أنت ولـيِّي في الدنيا والآخرة ﴾ [ يوسف : ١٠١ ] .

﴿ قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض ﴾ [ إبراهيم : ١٠ ] .

---

(١) مفردات الراغب: ٣٨٢.

﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً ﴾ [ فاطر : ١ ] .

﴿قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة﴾ [الزمر: ٤٦ ] .

﴿ فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ [ الشورى : ١١ ] .

ومن خلال النظر في آيات المجموعتين السابقتين نرى أن كلمة « فطر » و « فاطر » وردتا وصفاً لفعل الله تعالى الذي لا يقدر أحد من خلقه على مثله ، بل يستدل من مثل هذا الفعل على وحدانيته تعالى ، لأن فيه ما يشي بقدرته وتفرده وبديع صنعه وحسن صبغته .

أما كلمة « يتفطرن » في قوله تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ﴾ [ مريم : ٩٠ ] . وقوله تعالى ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ﴾ [ الشورى : ٥ ] . وكلمة « انفطرت » في قوله تعالى : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ [ الانفطار : ١ ] . وكلمة « فطور » في قوله تعالى : ﴿ فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾ [ الملك : ٣ ] . وكلمة « منفطر » في قوله تعالى : ﴿ السماء منفطر به كان وعده مفعولاً ﴾ [ المزمل : ١٨ ] . فإنها في كل هذه الآيات تدل على عكس ما تقدم من حسن الخلق وإتقان الصنع لأنها وردت في مجال الدمار والهلاك .

كلمة « فطرة » :

من خلال استعراضنا لمادة « فطر » في القرآن الكريم رأينا أن كلمة « فطرة » استعملت مرة واحدة في قوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم . . . . ﴾ .

وعلمنا مما تقدم مدى اختلاف العلماء والمفسرين في تحديدهم

لمدلولها في ضوء حديث الرسول ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه . . . » .

**ولا بد لنا أن نشير إلى أن « فطرة » على وزن « فعلة » وهي : الصيغة التي تدل على « الهيأة » أو « الحالة » ، وهذا يعني أن الله ابتدأ خلق الناس على هيأة وحالة ، ولا بد أن تكون هذه الهيأة والحالة لها صلة بالدين وذلك يفهم من سياق الآية حيث يقول الله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ .**

فقد طلب الله تعالى منا إقامة وجوهنا للدين حنيفاً ، ثم بين لنا أن ذلك إنما يكون باتباع فطرة الله التي لاتتبدل ، ثم جمع ذلك كلّه بقوله : ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ .

**فـ « الفطرة » إذن : حالة وهيئة دينية خلق عليها الناس ابتداء ، ولكن ماذا تعني هذه الحالة الدينية ؟**

**لابد لنا هنا من الرجوع إلى النصوص التي تساعدنا في تحديد ذلك ، وأول ما يتبادر لنا في ذلك الحديث المشهور : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كمثل البهيمة ، تنتج البهيمة ، هل ترى فيها جدعاء » ـ البخاري : ـ ٣ / ١٩٧ وفي لفظ مسلم : « ما من مولود يولد إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء » مسلم : ٢٠٤٧ .**

وكذلك حديث مسلم : « . . . . . وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً . . . . » مسلم : ٤ / ٢١٩٧ .

ومن الرجوع إلى شروح الحديثين يتبين أن معظم العلماء يميلون إلى أن المراد بالفطرة ـ هنا ـ : الإسلام . غير أن بعض العلماء الآخرين

يوردون من الاعتراضات التي تلزم من هذا التفسير ما يدفعون به هذا الفهم الذي هو تفسير الفطرة بـ « الإسلام » . كأن يقولوا : إن الإسلام فرائض وأركان وواجبات ووعي لوجود الله وفهم لتعاليمه ، وهذه كلها لا تتأتّى من المولود وليس هو مطالباً بها إلا بعد البلوغ .

وكأن يقولوا : إن الطفل النصراني أو اليهودي يرث من والده النصراني أو اليهودي ، ولو أننا حكمنا بكونه مسلماً ينبغي أن لا يرث منه .

وهـذا كله يدفعهم إلى أن يفسـروا « الفطرة » بغير الإسلام ، حتى لا يوقعوا أنفسهم في مثل هذه الإشكالات والمحالات ، فيقولون مثلاً ، إن الفطرة : هي الجبلة القابلة لدين الحق ، أو غير ذلك من التأويلات التي أشرنا إليها في مطلع هذا البحث .

والذي أوقعهم في ذلك تفسيرهم لـ « الإسلام » الذي سبق أن بيَّناه ، والـذي لا يتأتّى حصوله من المولود الذي لايعي ولا يفكر ولا يقدر على القيام بواجب من الواجبات ، مع أن الإسلام يَرِدُ بمعان متعددة، ويطلق على أصول وفروع كثيرة ، فقد يطلق « الإسلام » ويراد به أحدُ معانيه ، أو أحدُ أصوله ، ولاشك بأن سياق الكلام والنصوص الخاصة في دلالتها هي التي تحـدد المعنى المـراد وتـزيل الاشتراك والعموم الذي قد يكون في النصوص العامة والمطلقة .

ولو أننا رجعنا إلى آيات أُخر قريبة في ألفاظها من ألفاظ الآية التي نحن بصـددها فإننا نجد أنفسنا نقترب من تحديد معنى الفطرة اقتراباً كبيراً ، ولنأخذ على سبيل المثال الآيات التالية :

﴿ وأن أقـم وجهـك للـدين حنيفـاً ولا تكـونـنَّ من المشـركيـن ﴾ [ يونس : ١٠٥ ] .

﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ [ يوسف : ٤٠ ] .

﴿ قل سيروا في الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين . فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون ﴾ [ الروم : ٤٢ ـ ٤٣ ] .

﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ [ الأنعام : ٧٩ ] .

﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون . فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ [ الأعراف : ٢٩ ـ ٣٠ ] .

﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ [ الأنعام : ١٦١ ] .

وإذا ما تأملنا الأسطر التي تحتها خط فإننا نرى أن ما جاء في هذه الآيات لايدع مجالاً لتعدد التفسيرات حيث تنص كلها على وجوب إقامة الوجه للدين حنيفاً وعدم الإشراك بالله ، وأن الدين القيم عبادة الله وحده وهو ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين وهذا يعني أن المقصود بـ « الفطرة » هو : التوحيد وعدم الشرك ، وعلى هذا يكون الإسلام الذي فسرت به الفطرة إنما هو : التوحيد الفطري الغريزي الذي ابتدأ الله عليه الخلق وليس المقصود به كل تعاليم الإسلام التي فهمها بعضهم وأورد على أساسها اعتراضاته التي أشرنا إليها .

ومما يقطع بهذا الفهم الذي تمليه الآيات السابقة ما جاء في الآية التي تتحدث عن ميثاق الفطرة الذي أخذ على بني آدم وهم في عالم الذر : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا : بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ [ الأعراف : ١٧٢ ـ ١٧٣ ] .

وواضح هنا إقرارهم بالله واعترافهم بوحدانيته فطرة ، حيث تبدو الغفلة عن ذلك بعد الكبر أمراً مستنكراً ، كما يبدو التقليد للآباء والأجداد في شركهم منافياً كل المنافاة لهذا الميثاق الفطري .

وعلى هذا الأساس نفسه يمكن أن نفهم الأحاديث الشريفة الواردة في هذا الموضوع ، فالمقصود بالتنصير والتهويد والتمجيس والتشريك ـ في بعض الروايات ـ محاولة طمس التوحيد الفطري الذي ولد عليه كل مولود فالتوحيد هو مفرق الطريق بين الإسلام والأديان الأخر ، ولم يؤمر أهل الكتاب إلا بعبادة الله الواحد الذي تضمنه ميثاق الفطرة ، إلا أنهم انحرفوا عن ذلك بعدما جاءتهم البينة : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة** ﴾ [ البينة : ٥ ] .

**التوحيد فطرة الكون كله :**

عرفنا مما تقدم أن الناس فطروا على التوحيد ، وأن هذا التوحيد توحيد فطري غريزي أودعه الله في نفوسهم كما أودع فيها غرائزهم ومشاعرهم وخصائصهم النفسية والجسدية التي لا يملكون الانفكاك عنها ، وهذا النوع من التوحيد توحيد قسري لا يستطيع الإنسان أن يرفضه ، ومن هنا قال بنو آدم حينما وجه إليهم السؤال في الميثاق الذي أخذ عليهم ـ وهم في عالم الذر ـ ﴿ **ألست بربكم قالوا بلى شهدنا** ﴾ .

وقد ورد في معنى هذه الآية حديث مرفوع أخرجه أحمد في مسنده برقم ( ٢٤٥٥ ) ج ٤ / ١٥١ ونصه : ( حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا جرير ـ يعني : ابن حازم ـ عن كلثوم بن جبر ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان ـ يعني : عرفة ـ فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها ، فنثرهم بين يديه كالذر ، ثم كلمهم قُبُلاً قال : ﴿ **ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من**

بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾[1] [ الأعراف : ١٧٢ ] .

وهذا النوع من التوحيد ليس خاصاً بالإنسان ، بل هو مشترك بينه وبين الكون كله . فالكون كله وبكل ما فيه موحد بهذا المعنى ، لأن الله فطره على ذلك بل إن هذا الكون كله إنما قام ووجد لأنه صادر عن إله واحد . ﴿ لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [ الأنبياء : ٢٢ ] .

ولَن يبقى كذلك ويستمر إلا بفضل هذا التوحيد ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾ [ المؤمنون : ٧١ ] ومما يشير إلى هذا النوع من التوحيد كثير من الآيات القرآنية التي تتحدث عن قنوت الأشياء كلها لله عز وجل وإسلامها ، وسجودها له ، وتسبيحها له . فمن آيات القنوت :

قوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون . بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ [ البقرة : ١١٦ ـ ١١٧ ] .

وقوله تعالى : ﴿ وله من في السموات والأرض كلٌّ له قانتون . وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ [ الروم : ٢٦ ـ ٢٧ ] .

وهذا القنوت العام شامل لطاعة كل شيء لمشيئته تعالى وقدرته وخَلْقه ، فإنه لايخرج شيء عن مشيئته تعالى وقدرته وملكه ، كذلك يشمل اعترافهم بربوبيته فطرة واضطرارهم إلى مسألته والرغبة إليه ودخولهم فيما يأمر به وإن كانوا كارهين . وجزاؤهم على أعمالهم ، ودخولهم فيما يأمر به مع الكراهية يدخل فيه المنافق والمعطي للجزية عن يد وهو صاغر .

---

(١) وهذا الحديث يجعله ابن كثير موقوفاً على ابن عباس معلِّلاً ذلك بكثرة رواة وقفه. وقد قال الشيخ أحمد شاكر في شرح المسند : ( وكأن ابن كثير يريد تعليل المرفوع بالموقوف، وما هذه بعلَّة، والرفع زيادة من ثقة، فهي مقبولة صحيحة) وقال أيضاً: إسناده صحيح . وانظر تفسير الطبري: ١٣ / ١٧٢ حيث وافق الأستاذ محمود شاكر ما ذهب إليه أخوه الشيخ أحمد.

والذي يُسلم أولاً رغبةً ورهبةً ، فالقنوت شامل داخل للجميع ، لكن المؤمن يقنت له طوعاً وغيره يقنت له كرهاً ، قال الله تعالى : ﴿ **ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً** ﴾ [ الرعد : ١٥ ] .

ومن آيات الإسلام قوله تعالى : ﴿ **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون** ﴾ [ آل عمران : ٨٣ ] .

والآية تنكر على من يبتغي غير الإسلام ديناً وتعجب من شأنه لأن كل من في السموات والأرض أسلم لله طوعاً وكرهاً ، فكيف ينفرد هو بهذا الموقف الشاذ النشاز الذي يريد به مخالفة كل من في السموات والأرض حين يبتغي غير الإسلام ديناً ، إن الذي يفيده وينفعه أن يكون مسلماً لله طوعاً كما كان مسلماً له كرهاً[1] .

ومن آيات السجود :

قوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ، ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء** ﴾ [ الحج : ١٨ ] .

وقوله تعالى : ﴿ **أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لايستكبرون** ﴾ [ النحل : ٤٨ ـ ٤٩ ] .

وقوله تعالى : ﴿ **ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال** ﴾ [ الرعد : ١٥ ] .

والسجود في هذه الآيات ( هو السجود الشامل لجميع المخلوقات المتضمن لغاية الخضوع والذل ، وكل مخلوق فقد تواضع لعظمته وذلَّ

---

(١) جامع الرسائل لابن تيمية : ٢٧ .

لعزته واستسلم لقدرته ، ولا يجب أن يكون سجود كل شيء مثل سجود الإنسان على سبعة أعضاء )[1] .

( وقد حاول كثير من المفسرين تفسير السجود في هذه الآيات ، وذكروا في ذلك أقوالاً متعددة ، وفرقوا بين سجود من يعقل وسجود مالا يعقل فجعل بعضهم سجود مالا يعقل بيان أثر الصنعة فيه والخضوع الذي يدل على أنه مخلوق ، كما جعلوا سجود النبات تفيأ ظلاله أو الانقياد لما سخر له ، أو أن يكون سجوداً لا نعلمه ) .

وقد ذهب ابن تيمية إلى ترجيح أن لها سجوداً لا نعلمه قال : ( ومذهب أهل السنة أن لله علماً في الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء لايقف عليه غيره ، ولها صلاة وتسبيح وخشية كما قال عز وجل : ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم** ﴾ ـ الآية ـ فيجب على المرء الإيمان به وبكل علمه إلى الله تعالى . . . . )[2] .

ومثل ذلك يقال في آيات التسبيح الكثيرة كقوله تعالى : ﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ [ الإسراء : ٤٤ ] . وقوله تعالى : ﴿ **سبح لله ما في السموات والأرض** ﴾ [ الحديد : ١ ] . وقوله تعالى : ﴿ **يسبح لله ما في السموات وما في الأرض** ﴾ [ الجمعة : ١ ] ، [ والتغابن : ١ ] . وغيرها من الآيات .

ومن النظر في ما سبق من الآيات نرى أن هناك قنوتاً عاماً وإسلاماً عاماً وسجوداً عاماً وتسبيحاً عاماً يشترك فيه كل ما في السموات والأرض من مخلوقات الله طوعاً وكرهاً كما أشارت إلى ذلك بعض الآيات ، كما نرى

---

(١) جامع الرسائل لابن تيمية : ٢٧ .

(٢) جامع الرسائل لابن تيمية : ٤٢ .

إشارة في بعض الآيات إلى سجود كثير من الناس مع هذه المخلوقات ، وعدم سجود كثير آخر ممن حق عليه العذاب .

وهـذا يجعلنـا نفسـر السجـود العـام الشـامل بأنه السجود الفطري الغريزي ، دون السجود الآخر الذي يكون من الإنسان بعد أن يبلغ سن التكليف وذلك بدلالة ما يترتب على تركه من العذاب الذي أشارت إليه الآية ولا شك أن مثل هذا السجود لايمكن أن يتصور إلا طوعاً .

فيبقى السجود العام الشامل الفطري هو الذي ينتظم الكون كله . بل إن هذا الكون الموحِّد فطرة ليستنكرَ الشرك الذي يصدر عن الإنسان ولا يستطيع سماعه وتحمله ، لأنه مخالف لبنيته التي قام عليها ﴿ **وقالوا اتَّخَذَ الـرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إدّاً . تكاد السموات يتفطَّرن منه وتنشقُّ الأرض وتخرُّ الجبال هدَّاً ، أن دعوا للرحمن ولداً . وما ينبغي للرحمن أن يتخـذ ولداً . إن كلُّ ما في السموات والأرض إلاّ آتي الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدَّهُم عدَّاً . وكلُّهم آتيه يوم القيامة فرداً** ﴾ [ مريم : ٨٨ ـ ٩٥ ] .

وهكذا نرى أن هذا التوحيد الفطري توحيد مشترك بين المخلوقات كلهـا يستـوي فيه الإنسـان مع غيره ، ومن هنا فلا يترتب على مثل هذا التوحيد أوامر أو نواهي ، كما لا ينبني عليه أحكام تشريعية كالميراث أو غيره وبالتالي فليس هناك مسؤولية من ثواب أو عقاب ، لأن مناط ذلك هو العقـل والإدراك ، والأمر هنا منوط بالفطرة والغريزة . وعلى هذا فجميع الاعتـراضـات التي أوردت على تفسير الفطرة بالإسلام لا تَردُ هنا ، لأن المراد به الإسلام الفطري الذي يستوي فيه الإنسان مع الكون بكل ما فيه .

**هداية فطرية عامة :**

لكن يمكن أن ينشـأ عن هذا التوحيد الفطري هداية فطرية غريزية تصلح بهـا حياة كل مخلوق في شؤونه الخاصة وفي صلته بخالقه وهذا

ما تشير إليه الآية القرآنية في قوله تعالى : ﴿ **الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾ وكما نرى في قوله تعالى : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون . . . .** ﴾ .

**هداية فطرية إنسانية :**

إن الإنسان وإن كان يشترك مع المخلوقات الأُخر في التوحيد الفطري والهداية الفطرية إلا أن هاتين الصفتين هما في الإنسان أكمل منهما في سائر المخلوقات الأُخر نظراً لما يمتاز به الإنسان في خلقه على بقية المخلوقات وكما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم** ﴾ .

ومن هنا كانت الهداية الفطرية الإنسانية تشمل معرفةً مجملة بالخير والشر والفجور والتقوى ، وذلك ما يفهم من صريح قوله تعالى : ﴿ **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ وقوله ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ ولعل من هذا القبيل ما ورد في قول الرسول ﷺ « عشر من الفطرة » وتفضيله اللبن على الخمر ليلة الإسراء والمعراج ، حيث قيل له : لقد اخترت الفطرة . فكأن صواب هذه الأعمال مما يهتدي إليها الإنسان بمعرفته الفطرية الأولية قبل أن تؤكدها الرسالات السماوية والنظرات العقلية التفصيلية .

**أصالة الفطرة :**

عرفنا مما سبق أن الفطرة توحيد جبلّي لله ومعرفة أولية مجملة بالخير والشر والفجور والتقوى ، وأن كل مولود يولد على هذه الفطرة ، وأنه لا يترتب على هذه الفطرة أية مسؤولية لأنها قضية قسرية لا يد للإنسان فيها .

وبقي أن نعرف أن هذه الفطرة شيء ثابت وأصيل لدى البشر ، لأنه أمر غريزي يولد بولادتهم وجزء كامن في نفوسهم وهذا ما تؤكده آية الفطرة

نفسها ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم** ﴾ .

وخَلْقُ الله ـ هنا ـ إنما يراد به ما سبق في أول الآية ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾ فالفطرة إذن غير قابلة للتبديل . فهي حاضرة أبداً في النفس الإنسانية يشعر بها صاحبها وإن سلك في الحياة سلوكاً يخالفها أو تكلم بكلام لا يوافقها .

**الغفلة عن الفطرة :**

بالرغم من أن الفطرة عميقة الجذور في النفس الإنسانية شديدة الالتصاق بها فإن الغفلة عنها بعد الكبرَ أمر ممكن الحدوث ، ولقد ذكَّرنا الله سبحانه وتعالى بميثاق الفطرة ، حتى لانغفل عن ذلك حين قال : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ، : أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾ .

ولم يكتف القرآن الكريم بتذكيرنا بميثاق الفطرة الذي يمكن أن نغفل عنه وإنما ذكر لنا أيضاً أنواع الغفلة التي قد تصيب الإنسان ، والتي يمكن أن يكون الإنسان مسؤولاً بسببها لأنها واقعة في مقدوره وفي دائرة كسبه واختياره وسنبين فيما يلي أنواع هذه الغفلة :

**الغفلة بعدم استعمال الحواس :**

الحواس هي المنافذ التي يطل منها الإنسان على الكون بكامله ، وعن طريقها يبدأ الإنسان تحصيل المعرفة ، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾ .

فالحواس التي لا تتأمل ولا تشاهد ولا تسمع ولا تعي ولا تهتدي إلى التوحيد الذي ينشأ نتيجة لاستخدامها في ما خلقت له بتأكيد التوحيد

الفطري وتقويته ، لاشك أنها تسبب لصاحبها غفلة كبرى عن حقيقة محسوسة ملموسة تشاهد آثارها بالسمع والبصر والعقل والقلب ، ومن هنا يصف القرآن الكريم أمثال هؤلاء الناس بأنهم غافلون ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾ [ الأعراف : ١٧٩ ] .

ويبين في آيات أُخَر أن الغفلة بعدم استعمال الحواس قد تكون عقوبة إلهية للذين ينحرفون عن طريق الإيمان وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ **إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم . إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون . من كفر بالله من بعد إيمانه إلاّ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون** ﴾ [ النحل : ١٠٤ ـ ١٠٨ ] .

**الغفلة عن آيات الله :**

إن آيات الله مبثوثة في كل شيء مسطورة في هذا الكون العريض وعلى الإنسان أن يحسن قراءتها ، وأن يعرف خفاياها وأسرارها ، وأن ينتقل من المعلوم إلى المجهول ، ومن الظاهر إلى الباطن ، ومن الدنيا إلى الآخرة ، ومن السبب القريب إلى السبب البعيد ، وأن لا يطمئن إلى النظرة السطحية ، والتأملات الهامشية ، ومن هنا يصف القرآن الكريم أكثر الناس بأنهم لا يعلمون لغفلتهم عن الحقائق وتعلقهم بالظواهر حيث يقول : ﴿ **وَعْدَ الله لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾ [ الروم : ٦ ـ ٧ ] .

كذلك هناك من لا يستخلص العبر والنتائج من الحوادث التاريخية التي تقوم آثارها شاهدة على سلوك أصحابها كما حدث بالنسبة لفرعون ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آيةً وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون** ﴾ [ يونس : ٩٢ ] .

ويبين في آية أخرى عقوبة الغافلين عن آيات الله ومصيرهم فيقول : ﴿ **إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون** ﴾ [ يونس : ٧ - ٨ ] .

**الغفلة عن التعاليم الإلٰهية :**

لقد فُطِرَ الإنسان على التوحيد غريزةً وجِبِلَّةً ، وطُلبَ إليه أن يؤكد هذا التوحيد عن طريق استخدام العقل والحواس وملاحظة آيات الله الدالة عليه الشاهدة بوحدانيته ، وأن لا يغفل عنها ويمر بها معرضاً عنها ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، ولم يُتْرَكِ الإنسانُ لفطرته وحواسه وعقله ، بل اقتضت حكمة الله سبحانه أن يُرسلَ إليه الرُّسُل وينزلَ عليه الكتبَ التي تؤكِّد ما يشعر به غريزةً وفطرةً وما يلاحظه بعقله وحواسه ، ومن هنا لا تَكْمُلُ مسؤوليةُ الإنسان إلاَّ بعد إرسال الرُّسُل مبشرينَ ومنذرين ﴿ **رسلاً مبشرين ومنذرين لِئَلاَّ يكون للناس على الله حجةٌ بعدَ الرُّسُل** ﴾ .

وهكذا يصف القرآن الكريم الذين يعرضون عن تعاليم الأنبياء والرسل بأنهم غافلون ﴿ **فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين** ﴾ [ الأعراف : ١٣٦ ] . ﴿ **ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين** ﴾ [ الأعراف : ١٤٦ ] .

كما يصف الناس الذين لم يرسل إليهم رسول بأنهم غافلون لأنهم لم يطلعوا على الرسالات التي أنزلها الله ولم يعرفوا عنها شيئاً ﴿ **لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون** ﴾ [ يس : ٦ ] .

كما يصف من لم يَطَّلِع على الكتب التي أنزلت على غيره من الأمم بأنه غافل عن دراستها ﴿ **وإن كنا عن دراستهم لغافلين** ﴾ [ الأنعام : ١٥ ] .

ومن كل ما سبق يتبين لنا أن المسؤولية أمام الله سبحانه وتعالى إنما تكونُ نتيجةَ غفلة الإنسان عن التوحيد المغروس في النفس الإنسانية فطرةً وغريزةً ، والذي تشهد له التأملات الذهنيةُ والنظراتُ العقليةُ القائمةُ على ملاحظات الحواس ومشاهداتِها ، كما تشهد له الكتبُ السماويةُ والتعاليمُ الإلٰهيةُ المنزلةُ على الأنبياء والرسل ، وعلى هذا نجد القرآن الكريمَ يرتِّبُ المسؤوليةَ على الإنسان نتيجة غفلته عن هذين الأمرين الكبيرين .

ففي مجال الغفلة عن استعمال الحواس يقول القرآن الكريم عن الكافرين يوم القيامة : ﴿ **وقالوا لو كنا نسمعُ أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسُحقاً لأصحاب السعير** ﴾ [ تبارك : ١٠ ـ ١١ ] .

وفي مجال الغفلة عن الرسالات السماوية وتعاليمها وعقوبة الغافلين عنها يقول القرآن الكريم : ﴿ **يا معشرَ الجنِّ والإنس ألم يأتكم رُسُلٌ منكم يقصُّون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا شهدنا على أنفسنا وغرَّتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين . ذلك أن لم يكن ربُّكَ مهلكَ القرى بظلمٍ وأهلها غافلون** ﴾ [ الأنعام : ١٣٠ ـ ١٣١ ] .

ويلاحظ أن النفي في هذه الآية الأخيرة مُنْصَبٌّ على الجملة الحالية ، والمعنى : إن الله لايهلك قوماً في حال غفلتهم أي : عدم إنذارهم ، بل لا يُهْلِكُ أحداً إلا بعد الإعذار والإنذار على ألْسِنَةِ الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ كما أشارت إلى ذلك الآيات القرآنية ومنها ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾ .

وبذلك يتحرر الإنسان من سلطان الغفلة بكل معانيها ، الغفلة

الحـاصلة نتيجـة سوء استخـدام الملكـات ، والغفلة الحـاصلة نتيجـة الإعراض عن الرسالات . وتسير الملكات والرسالات مع الفطرة جنباً إلى جنب تؤكـد حقيقةً واحدةً وتصنعُ من الإنسان كُلاًّ مُوَحَّداً لا انفصام بين فطرته وملكاته ورسالته فيكون أقوى ما يكون لمواجهة ما قد يقف أمامه من عقبات ، وما يمكن أن يعترضه من صعاب .

**أثر البيئة على الفطرة :**

إذا كانت **الفطرة** أصيلة في تركيب الإنسان داخلة في صميم تكوينه غير قابلة للتبديل والتغيير كان مقتضى ذلك أن يكون الناس كلهم مؤمنين وهذا ما دعا بعض العلماء إلى أن يخصص مفهوم آية الفطرة بالمؤمنين من دون الناس الآخرين ، غير أن الواقع المشاهد أن أكثر الناس مشركون ، فكيف حدث ذلك ؟ وأين هي الفطرة الأصيلة هل تبدلت وتغيرت ؟ أم هل ضعفت وفسدت حتى غلب الشرك على أمثال هؤلاء الناس ؟

إن هذا الشرك المشاهد والمخالف للفطرة الإنسانية إنما وجد نتيجة للبيئـة المشـركة والتي تتمثل أول ما تتمثل بالوالدين أو من يقوم مقامهما بمهمـة التـوجيه والتـربية كالمـدارس والجـامعات وما إليها وهذا ما أكده الرسول ﷺ حينما قال : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه ، أو يمجِّسانه أو ينصِّرانه . . . . » .

والـطفل بطبيعة ضعفه قابل للاستجابة لكل ما يلقى إليه بل إنه قد يسعى بنفسـه إلى تقليد كل ما يشـاهـده ، ومن هنـا تنتقل إليه كثير من الانحرافات الشائعة فيمن حوله عن طريق التقليد . وهذا ما تشير إليه الآية القرآنية التي تُذَكِّرُ الإنسان بميثاق **الفطرة** حين تقول : ﴿ . . . . . **أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذريةً مِنْ بَعْدِهم أَفَتُهْلِكُنا بما فعل المبطلون** ﴾ .

وإذن فضغطُ البيئـة من جانب ، واستعـدادُ الـطِّفل من جانب آخر للتقليد يساعدان كلاهما على الانحراف عن سواء الفطرة ، كما أن الإغراق

في الانحراف واكتساب المعاصي يستر الفطرة ويخفيها ، حتى ليظن أنها قد تغيرت وتبدلت أو أصابها الفساد والاختلال . ولكن القرآن الكريم يخبرنا أن الفطرة تبقى تحت هذا الركام الهائل من الانحراف ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ وإنها حينما تجد الفرصة المناسبة فإنها تتكلم معلنة عن نفسها، وذلك حينما يتعرض الإنسان لبعض المواقف العنيفة التي تهز كيانه فيتساقط ذلك الزيف والران الذي يغطي الفطرة ويسترها ، فتتوجه النفس الإنسانية إلى بارئها ضارعة مُوَحِّدَةً تطلب كشف الضر عنها ، فإذا أجيبت دعوتها عادت إلى ما كانت فيه من شرك وغي ونسيت ما دَعَت إليه ، وذلك كما نرى من خلال الآيات القرآنية التالية :

﴿ **وإذا مسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دعا ربَّه منيباً إليه ، ثم إذا خَوَّلَه نعمةً منه نسيَ ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً لِيُضِلَّ عن سبيله قل تمتَّعْ بكُفْرِكَ قليلاً إنَّك من أصحاب النار** ﴾ [ الزمر : ٨ ] .

﴿ وإذا غَشِيَهُم موجٌ كالظُّلَلِ دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ، وما يجحد بآياتنا إلا كلُّ خَتَّارٍ كفور ﴾ [ لقمان : ٣٢ ] .

﴿ **فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نَجَّاهم إلى البر إذا هم يُشْرِكون** ﴾ [ العنكبوت : ٦٥ ] .

﴿ **هو الذي يُسَيِّرُكُم في البر والبحر حتى إذا كنتُم في الفُلْكِ وجَرَيْنَ بهم بريحٍ طَيِّبَةٍ وفرحوا بها جاءتْها ريحٌ عاصف وجاءهُمُ الموجُ من كُلِّ مكانٍ وظَنُّوا أنهم أُحيطَ بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أَنجَيتَنا من هذه لنكونَنَّ من الشاكرين . فلما أنجاهُم إذا هم يبغونَ في الأرض بغير الحق . يا أيها الناس إنما بَغْيُكُم على أَنفُسِكُم متاعُ الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعُكُم فنُنبئكُم بما كنتم تعملون** ﴾ [ يونس : ٢٢ - ٢٣ ] .

وإذن فالفطرة لم تمت فهي تتكلم حينما يتساقط الركام الذي يرين فوقها بفعل العوامل العنيفة التي يتعرض لها الإنسان كثيراً .

**مواجهة تأثير البيئة :**

إذا كانت البيئـة المنحرفة تؤثر تأثيراً كبيراً في إخفاء الفطرة وطمسها وتستغـل جانب الضعف عند الطفل بحب التقليد لإحكام قبضتها عليها والإحاطة بها ، فإنَّ هذا الطفل لن يبقى طفلاً للأبد ، وهو قادر حينما يشتدّ عودُه ويبلغ أشدَّه أن يعيدَ النظر في ما أخذه عن طريق التقليد الأعمى ، وأن يُصحِّحَ خطَّ سيره ، وأن يستنقذَ فطرتَه من رُكام تأثير البيئة والتقليد ، وقـد بيَّن لنا القرآنُ الكريمُ قدرةَ الإنسان هذه حينما قال : ﴿ **ونفس وما سوَّاهـا فألهمهـا فجـورَها وتقواها . قد أفلحَ مَن زكَّاها . وقد خابَ مَن دسَّاها** ﴾ . فالإنسان قادرٌ على أن يزكي نفسه بالتقوى كما هو قادر على أن يُدَسِّيهـا بالفجـور ، وإذا كانت البيئـةُ المنحـرفـة عونـاً للتدسِيَة على التـزكية ، فإن الحواسَّ والعقلَ والرسالات الإلٰهية تقف كُلُّها إلى جانب التـزكية تشدُّ من أزرها وتزيح من طريقها العقبات . وهكذا يـشن القرآن الكـريم حملةً شعواءَ على التقليد الأعمى حينما يتحدث عن المشركين فيقول : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفَينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون** ﴾ .

بل إنه ليرسم صورة رائعة للتفكير العقلي السليم في مواجهة التقليد الأعمى للآباء حينما يعرض قصة إبراهيم مع أبيه آزر ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نُري إبراهيمَ ملكوت السموات والأرض وليكونَ من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً . قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إنِّي وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين** ﴾ [ الأنعام : ٧٤ ـ ٧٩ ] .

وهكـذا يقف العقـل والحـواس بالتـأمـلات العميقـة والاستنتاجات الصحيحـة في وجـه التقليد الذي لا يستند إلى أثارة من علم يؤكدان ما يجول في داخل النفس الإنسانية من صوت الفطرة الذي لا يصمت .

## الفهرس


بين يدي البحث ..... ٥

الفطرة وتفسير القرطبي ..... ٧

الفطرة في أقوال العلماء ..... ٧

الفطرة: الولادة على ما يصير إليه من شقاوة وسعادة ..... ٨

الولادة على الفطرة ليست على العموم ..... ١٢

الفطرة: سلامة الخلقة من غير كفر أو ايمان ومن غير معرفة

أو إنكار ..... ١٣

مناقشة الأدلة التي اعتمد عليها القرطبي ..... ١٧

المعنى اللغوي ..... ٢٦

مادة «فطر» في القرآن الكريم ..... ٢٧

كلمة «فطرة» ..... ٢٨

التوحيد فطرة الكون كله ..... ٣٢

هداية فطرية عامة ..... ٣٦

هداية فطرية انسانية ..... ٣٦

أصالة الفطرة ..... ٣٧

الغفلة عن الفطرة ..... ٣٨

الغفلة بعدم استعمال الحواس ..... ٣٨

الغفلة عن التعاليم الإلهية ..... ٤٠
أثر البيئة على الفطرة ..... ٤٢
مواجهة تأثير البيئة ..... ٤٤
الفهرس ..... ٤٧